الانزياح الأسلوبي وأثره على المعنى في سورة الفاتحة

MUTAT ÜSLUBU TERK ETMENİN (İNZIYÂH) FATİHA SURESİNİN ANLAMINA ETKİSİ

Dr. Badawy Mohammed Elsawy Mohamed
Ağrı İbrahim Çeçen Üniversitesi
İslami İlimler Fakültesi
badawyarabic@gmail.com

Atıf Gösterme: BADAWY, Mohammed Elsawy Mohamed, (2019),الانزياح الأسلوبي وأثره على المعنى في سورة الفاتحة, *Ağrı İslâmi İlimler Dergisi (AGİİD),* 2019 (5), s.11-34.

Geliş Tarihi:
28 Ekim 2019
Kabul Tarihi:
3 Aralık 2019

© 2019 AGİİD
Tüm Hakları Saklıdır.

الملخص: يتناول هذا البحث ظاهرة الانزياح على المستوى الإيقاعي، والتركيبي والمعجمي والصرفي في فاتحة الكتاب، وهي ظاهرة تعد من أبرز سمات الأسلوبية. والانزياح مصطلح يبرز في قدرة المبدع على اختراق المتناول المألوف، أو كما يقال إنه مضاد لما هو معتاد. والغرض الرئيسي من هذه التقنية هو مفاجأة المتلقي وإثارة دهشته؛ لأنها تخالف القواعد المألوفة في المعيار اللغوي. والقرآن الكريم هو المثل الأعلى للنص الأدبي الذي بإمكاننا أن نرى فيه التراكيب المنزاحة والعبارات المعدولة عن القانون النحوي والصرفي. وقد رصدت في هذا البحث الظواهر المنزاحة في المعيار اللغوي في المستويات الثلاثة الإيقاعي، والتركيبي، والمعجمي بحيث تشير النتائج إلى أنّ السورة الكريمة لفتت الانتباه بأسلوبها الخارج عن مألوف العادة خروجا يتحدى القُوى والقُدَر.

الكلمات المفتاحية: *سورة "الفاتحة"، الأسلوبية، الانزياح الصوتي، الانزياح التركيبي الانزياح المعجمي والصرفي، المعني*

Abstract: Bu araştırma ritim, terkip, lügat ve sarf ekseninde mutat olmayan üslubu tercih edip mutat olanı terk etme (inziyâh) olgusunu Fatiha Suresi özelinde ele almaktadır ki bu olgu üslup biliminin (stilistik) en önemli özelliklerindendir. İnziyâh kavramı, yazarın mutat ve alışılmış olanı ne denli aşmasına bağlıdır. Başka bir ifadeyle bu kavram, alışılagelenin zıddıdır. Bu olgunun esas amacı okuru şaşırtmak ve ilgisini arttırmaktır. Nitekim söz konusu üslup, klasik dilsel ölçü ve standartlardan farklılık arz etmektedir. İnziyâh üslubunu ve mutat dilsel kurallardan uzaklaşma olgusunu en mükemmel haliyle müşahede edeceğimiz üstün edebi örnek tabi ki Kuran-ı Kerim'dir.

Bu araştırmada dil kurallarında inziyâh olgusunu; ritim, terkip ve lügat olmak üzere üç boyut ekseninde ele aldık. Araştırma sonucunda Fatiha Suresi, gerçekten de mutat olan üslupların dışına çıkma yönüyle dikkatleri celp etmiş ve güç-yetenek sahiplerine meydan okumuştur..

Keywords: *Fatiha Suresi, üslup biliminin (stilistik), ritimsel inziyâh, terkîbî inziyâh, sarfî inziyâh, mana*

أولا: الانزياح في اللغة والنقد:

الانزياح، مادته "زيح" من باب الانفعال أي ذهب وتباعد. زاح الشيء يزيح زَيحاً وزُيوحاً وزِيوحاً وزَيَحاناً وأزحتُهُ وأزاحَه غيَّره[1] . وفي مقاييس اللغة: زَيَحَ: وهو زوال الشيء وتنحيه، يقال زاح الشيء يزيح: إذا ذهب، وقد أزحت علته فزاحت، وهي تزيح [2].

يكاد الإجماع ينعقد على ان الانزياح هو خروج عن المألوف أو ما يقتضيه الظاهر، أو هو:الخروج عن المعيار لغرض يقصده المتكلم»[3] وهو «استعمال المبدع للغة مفردات وتراكيب وصورا يخرج بها عما هو معتاد ومألوف بحيث يؤدي ما ينبغي أن يتصف به من تفرد وإبداع وقوة جذب وأسر»[4] .وقد استعمل النقاد الغربيون وتبعهم الباحثون العرب مصطلحات كثيرة تدل على هذا المعنى، مما يشي بفوضوية المصطلح في الغرب ومن تابعهم، فمن ذلك الانزياح، والتجاوز، والانحراف، والاختلال، والإطاحة، والمخالفة، والشناعة، والانتهاك، وخرق السنن، واللحن، والعصيان، والتحريف [5] وهذه المصطلحات جميعا دوال لمدلول واحد. والذي أختاره من هذه المصطلحات هو مصطلح الانزياح لأن العدول قد يقتضي معاني أخرى بلاغية تبتعد عن الدراسة الأدبية. وهذه الظاهرة البيانية ليست غريبة على علمائنا الأوائل فقد تنبهوا إلى سمة من سمات البيان العربي، وهي المراوحة بين الأساليب، والانتقال المفاجئ من أسلوب إلى آخر أو من صيغة إلى أخرى، وأطلقوا على هذه الظاهرة مصطلحات عدة منها: المجاز، والنقل، والانتقال، والعدول، والصرف، والانصراف، ومخالفة مقتضى الظاهر، وشجاعة العربية، والحمل على المعنى، والترك، ونقض العادة وغير ذلك[6].

وظيفة الانزياح:

الانزياح هو خرق للمألوف أو خروج عن مقتضى الظاهر و«الانزياح عنصر وظيفي متسيد به، تستيقظ اللغة من سباتها الدلالي الإبلاغي لتؤدي وظيفة إيحائية بعد أن تنتعش في سياقات محفزة لمفرداتها، لأنه يلقي في مائها حجر تعددية المعنى وإيحائيته وبه – أيضا- تخرم الحجب البنائية، فتتأزم العلاقات التركيبية فيها، وبه تمارس اللغة ضروبا شتى من التنويعات الصوتية يطلب منها أن تدعم ارتكازها الشعري»[7]. وقديما قرر الجاحظ أن الخروج عن العادة من شأنه لفت الأنظار واسترعاء الانتباه «لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف، وكلما كان أظرف، كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع... والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البديع، وليس لهم في الموجود الراهن المقيم وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي معهم في الغريب القليل والشاذ النادر، وكل ما كان في ملك غيرهم، وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم، وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم»[8] لذا كان الغرض الأهم في الانزياح لفت الأنظار إلى الأسرار التي يحدثها خرق التعبير المألوف.

ثانيا: الانزياح الإيقاعي:

1- لسان العرب: ابن منظور: زيح.
2- مقاييس اللغة: ابن فارس: زيح.
3- الأسلوبية، الرؤية والتطبيق: يوسف أبو العدوس، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2007م، ص:7.
4- الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، أحمد محمد ويس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت لبنان،1426 هـ/2005م، ص:7.
5- الأسلوبية والأسلوب: عبد السلام المسدي، دار الكتب الجديدة، ط5، لبنان، 2006م. ص:79-80.
6- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، بيروت، المكتبة العصرية، 2002م، ص: 141
7- الانزياح في التراث النقدي والبلاغي: 283.
8- البيان والتبين: الجاحظ: 62.

الدراسة الصوتية تعد المحور الأول للدخول إلى النص الأدبي وبداية الولوج إلى عالمه وفهمه وإحساس بوعي لما فيه من قيم جمالية، فالصوت هو الوحدة الأساسية للغة التي يتشكل منها النص الأدبي، لأنَّ الألفاظ أصوات ذات جرس تتخذها كوسيلة للتعبير عن الدلالات أو الخواطر التي تجول بأذهاننا. (9)

إن منابع الإيقاع الظاهرة في الكلام الأدبي معروفة تماما، فهناك أولا: الإيقاع النابع من تآلف أصوات الحروف في اللفظة الواحدة، والحروف أصوات متفاوتة الجرس، يقرع بعضها بعضا حين تجتمع في اللفظ، وينتج عن تناغم قرعها نغم جميل(10) ثانيا: الموسيقى النابعة من تآلف مجموعات الموسيقى اللفظية حين ينتظمها التركيب في الفقرات والجمل، فالألفاظ المفردة تقرع الألفاظ المفردة المجاورة لها سابقا ولاحقا، وينجم عن تناسق تقارعها سلالم موسيقية جميلة. ويستندالإيقاع في سورة الفاتحة على مرتكزين: أولاً: شيوع حروف المد في السورة، واعتمادها على حرفي الميم والنون في فواصلها، ثانياً:الإيقاع الموسيقي الذي ينشأ من وجود بعض المحسنات البديعية في التركيب.

أ- إيقاع حروف المد والفواصل:

اشتملت الفاتحة على اثنين وعشرين حرف مد، وقد منحت أصوات المد جوًا يتناسب مع الدعاء والتضرع والإخبات، وناسبت الدعاء والتشكي والتأوه وبث الحزن للإنسان الحزين، وتؤدي حروف المد غرض المبالغة في التعظيم كما في أسمائه سبحانه الواردة في السورة ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أو الضمير العائد إليه ﴿إِيَّاكَ﴾.

كما اشتملت الفاتحة على سبع آيات منها البسملة وفقا لعلماء العدد الكوفيين، انتهت منها ثلاث آيات بحرف الميم، وأربع آيات بحرف النون، ووقعت الميم والنون في فواصل الفاتحة، والفواصل كما يقول الباقلاني «حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني وفيها بلاغة، والأسجاع عيب؛ لأن السجع يتبعه المعنى، والفواصل تابعة للمعاني»(11)

وعند التأمل نجد أن الميم صوت مستقل شفوي أنفي مجهور، متوسط بين الرخاوة والشدة، يشبه الحركات في الوضوح السمعي،«يحصل بانطباق الشفتين على بعضهما بعضًا في ضمة متأنية وانفتاحهما عند خروج النفس. ولذلك فإن صوته يوحي بذات الأحاسيس اللمسية التي تعانيها الشفتان لدى انطباقهما على بعضهما بعضا، من الليونة والمرونة والتماسك مع شيء من الحرارة... كما أن ضم الشفة على الشفة بشيء من الشدة والتأني قبيل خروج صوت الميم يمثّل ... الجمع والضم. أما انفراج الشفتين أثناء خروج صوت الميم فهو يمثل... التوسع والامتداد»(12) وهذا يناسب طلب القرب من الله ومعيته، واللجوء إلى كنفه من جانب، والتوسع في طلب الهداية منه من جانب آخر، قال ابن القيم:«الميم حرف شفوي يجمع الناطق به شفتيه، فوضعته العرب علما على الجمع»(13) ولذلك نجد حرف الميم في كثير من ضمائر التثنية والجمع مثل: أنتما، هما، إياكما، إياهما، أنتم، هم، إياكم(14)، كما أن إيحاء الحرف بالمرونة منسجم مع معاني الكلمات التي ختمت بها الفواصل مثل الرحيم، المستقيم، فالرحمة بين الكائنات تستلزم المرونة والليونة، جل ربي عن مشابهة المخلوقين، كما أن استقامة الطريق تريح السالك فيه من التخبط في الوعثاء والتعسف في السير.

9- مناهج تجديد في النحو البلاغة والتفسير والأدب.، أمين الخولي: ط1، دار المعرفة، 1961م، ص: 267.

10- الفن والأدب بحث في الجماليات والأنواع الأدبية، ميشال عاصي، بيروت دار الأندلس (د.ت)،ص:122.

11- إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: سيد أحمد صقر القاهرة، دار المعارف 1954م، ص: 270

(12) خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص72

(13) التفسير القيم: 1/ 162.

(14) استخدامات الحروف العربية (معجميا، صوتيا، صرفيا، نحويا، كتابيا)، سليمان فياض، دار المريخ، السعودية، 1418 هـ/1998م، ص 107

أما النون فحرف مستفل مرقق، وصوته أسناني لثوي أنفي مهجور، يشبه الحركات في أهم خواصها، وهي شدة الوضوح السمعي، متوسط بين الشدة والرخاوة[15]. وقد وُصف حرف النون بأنه «صوت ينبعث من الصميم للتعبير عبر الفطرة عن الألم العميق (أنَّ أنينا) ... وإذا لُفِظَ مخففًا أوحى بالأناقة والرقة والاستكانة»[16] ولذا جاءت النون في فواصل السورة في كلمات: (العالمين، الدين، نستعين، الضالين)؛ فرب العالمين تستكين كل العوالم لربوبيته، وتستذل لعطائه، ويوم الدين، تخشع الأصوات فيه للرحمن فلا تسمع إلا همسا، والاستكانة في ﴿نَسْتَعِين﴾ أوضح لتكرار النون، وتوحي النون في﴿الضَّالِّين﴾ بألم يعتصر الفؤاد ورهبة شديدة خشية الوقوع في حبائل الضلالة، وكلا الحرفين الميم والنون يتلاءمان تمامًا مع معاني الرحمة والاستعانة وطلب الهداية.«ومن النتائج التي حققها المحدثون أن اللام والميم والنون أكثر الأصوات الساكنة وضوحًا، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين، ولذا يميل بعضهم إلى تسميتها (أشباه أصوات اللين)، ففيها من صفات الأولى أن مجرى النفس معها تعترضه حوائل، وفيها أيضا من صفات أصوات اللين أنها لايكاد يسمع لها أي نوع من الحفيف»[17]وعلى هذا فليس في السورة فواصل حادة صاخبة، بل نحس في إيقاع فواصل السورة بنسائم الرحمة الندية، وسريانها اللطيف في كلمات السورة وعباراتها على العموم.

ب. إيقاع التكرار

التكرار لغة: الكرّ: الرجوع . والكرُّ مصدر كرّ عليه، يكرّ كرّاً وكروراً وتكراراً، وكرر الشيء: أعاده مرة أخرى. وكرّرت عليه الحديث: إذا رددته عليه. والكر: الرجوع على الشيء، ومنه التكرار [18]. والتكرار»هو تناوب الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تشكِّل نغماً موسيقياً يتقصّده الناظم في شعره أو نثره لإفادة تقوية النغم في الكلام، وإفادة تقويم المعاني الصورية أو تقوية المعاني التفصيلية»[19]

وقد جمع النظم الكريم بين ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ في البسملة والفاتحة، في الجمع بينهما تجانس لفظي بديع، لأنهما مشتقان من الرحمة، والتجانس بين الكلمات مظهر من مظاهر الائتلاف بين المعاني والألفاظ التي تميل إليه النفس، وتتأثر به أيما تأثر. وقد قالوا إن «عمود البلاغة وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أن في الكلام ألفاظا متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب»[20]، وصف الله تعالى نفسه بالرحمن الرحيم مع أن هذا الوصف قد جاء في البسملة، وذلك لعدة دلائل منها: أنه جاء بوصف ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بعد وصف الربوبية ﴿رَبِّ الْعَالَمِين﴾والله أعلم بمراده لأن تربية الله لخلقه ليست لحاجته إليهم؛ ولا لجلب مصلحة ولا لدرء مفسدة؛ لكن لعموم رحمته وشمول إحسانه جل وعلا. وأن بعضهم قد يفهم من (الرب) الجبروت والقهر، فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال، فذكر الرحمن، وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لا منتهى لهما، والرحيم الثابت له وصف الرحمة لا يزايله أبدًا. والتنبيه على أن تنزيل السورة جاء رحمة بعباده، ولا ينافي أن يكون من موضوعها ما هو مناسب لحكمة تنزيلها، وهو بيان رحمة الله بعباده مع بيان ربوبيته للعالمين، وأنه تعالى الملك الذي يملك وحده جزاء العاملين على أعمالهم.

---

(15) خصائص الحروف العربية ومعانيها ص 110
(16) خصائص الحروف العربية ومعانيها ص 160
(17) الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس: 28، 29، ط نهضة مصر الأولى وانظر: علم الأصوات: كمال بشر: 150، ط دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000.
18) لسان العرب: كرر.
19) حرص الألفاظ في البحث البلاغي والنقدي، ماهر مهدي هلال، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1980م، 239.
(20) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ،الرماني والخطابي والجرجاني تح/ محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام ط، دار المعارف مصر 1976م، ص 29.

أما في الجمع بين الاسمين الكريمين: الرحمن الرحيم فقد «قيل إن وصف (فعلان) يدل على وصف فِعْلِيٍّ، فيه معنى المبالغة كفعَّال، وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة، كعطشان وغضبان، وأما صيغة (فعيل) فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة، والسجايا في الناس، كعليم وحكيم وجميل، فلفظ ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل، وهي إفاضة النعم والإحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشأ الرحمة والإحسان، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة، وبهذا المعنى لا يستغني بأحد الوصفين عن الآخر، ولا يكون الثاني مؤكدًا للأول؛ فإذا سمع العربي وصف الله تعالى بالرحمن، وفهم أنه المفيض للنعم فعلًا؛ لا يعتقد أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائما؛ لأن الفعل قد ينقطع إذا لم يكن عن صفة لازمة ثابتة، وإن كان كثيرا، فعندما يسمع الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق به تعالى»[21] هذا بالإضافة إلى البعد النغمي الملحوظ من تكرار اسمين مختلفي الصيغة من مادة واحدة، والجانب الصوتي هو الركيزة التي يعتمد عليها فن الجناس، وما الجانب الصوتي إلا الإيقاع، أو النغم، أو الترديد الموسيقي، فالكلمتان المتجانستان تجانسًا تامًا، هما في الواقع إيقاعان موسيقيان ترددا في مساحة البيت الشعري، أو الآية القرآنية أو الجملة النثرية، وكذا الكلمتان المتجانستان تجانسًا ناقصًا، فالنقص في الجناس الناقص يلبي حاجة النفس إلى الإيقاع المتباين، كما يلبي الجناس التام حاجتها إلى الإيقاع الواحد المتكرر. وطالما أن الإيقاع هو ركيزة فن الجناس، والإيقاع عبارة عن «تكرار ضربة أو مجموعة من الضربات بشكل منتظم على نحو تتوقعها معه الأذن كلما آن أوانها»[22] . فمن الطَّبَعي أن يكون ترداد هذا الإيقاع متصلًا حينًا، أو متتاليًا منفصلًا حينًا آخر، ومن الطَّبَعي أيضا أن يكون الفصل لوجود فاصل أو فاصلين أو عدة فواصل. أي: فراغ أو فراغين أو عدة فراغات من الألفاظ التي لا تُكَوِّنُ إيقاعًا موسيقيًا. ويرجع ذلك إلى المعنى الذي يريد أن يوصله إلى المخاطب، والفنان بفنه وخبرته، يحرك هذا الفاصل (الفراغ) فيجعله قصيرًا أو طويلًا، أو يكرر النغمة ذاتها بلا فاصل حسبما يريد للمعنى من تأثير في أذن المخاطب ونفسه وعقله. وبالإضافة إلى القيمة الموسيقية للجناس التي تضاف إلى الأنواع الموسيقية، فإن للجناس أهمية إعلامية أخرى تقوم على التوكيد والإيحاء معًا؛ لأن الجناس يعتمد على التماثل السطحي[23]، أي: تماثل المتجانسين في اللفظ البادئ من صفحة النص، وكأنه بمثابة توكيد لفظي«وهذا المستوى يتصل بحاستين: حاسة السمع، التي تستطيع تتبع إيقاع الأحرف عند تجاورها لتُكَوِّن كلمةً أو بعضَ كلمة، وحاسة البصر التي تستطيع تتبع رسم الحروف وما بينها من توافق أو تخالف»[24]. أما الإيحاء فإنه يتم في المستوى العميق حيث «يتم تدقيق النظر في حركة الذهن واختيارها لنقط ارتكاز، تتشابه على مستوى الصياغة، وتتغاير على مستوى الدلالة»[25].

وترجع أهمية الجناس الإعلامية إلى ما يحدثه من مفاجأة وخداع للأفكار واختلاب للأذهان، إذ يتوهم السامع أن اللفظ مردد والمعنى مكرر، وأنه لن يجني منه سوى التطويل والسآمة، وعندما يأتي اللفظ الثاني بمعنى يغاير ما سبقه تأخذه الدهشة لتلك المفاجأة التي لم يتوقعها فاللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر، كان للنفس تشوق إليه وتطلع، وعندئذ

---

(21) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار):محمد رشيد بن علي رضا: 39، 40. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب1990 م
(22) التعبير الموسيقي: د/ فؤاد زكريا:21، ط2، مكتبة مصر 1980م. البديع في شعر شوقي: د/ منير سلطان:158، ط 2 منشأة المعارف، الإسكندرية 1992م
(23) البلاغة العربية قراءة أخرى: 272.
(24) السابق والصفحة
(25) السابق والصفحة

يقع منها أحسن موقع لأن الأديب «يعيد اللفظة على السامع كأنه يخدعه عن الفائدة، وقد أعطاها، ويوهمه كأنه لم يزده وقد أحسن الزيادة ووفَّاها»(26).

ولا يخرج الجناس عن نظرية تداعي الألفاظ وتداعي المعاني في علم النفس، فاللفظ يستدعي اللفظ والمعنى يستدعي المعنى، وهناك ألفاظ متفقة كل الاتفاق أو بعضه في الجرس، وهناك ألفاظ متقاربة أو متشابكة في المعنى بحيث تُذَكِّرُ الكلمة بأختها في الجرس وأختها في المعنى(27)، مما يعني أن صنوف الرحمة في السورة متعددة متكاثرة وإنها وإن كانت صفة لموصوف واحد إلا أن تعلقاتها كثيرة عدد ما أحاط به علم الله.

تكرار ﴿إِيَّاكَ﴾مع فعل العبادة والاستعانة:

وتكرارالضمير المنفصل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ لأن فيه رفع توهم العطف على ضمير المفعول المستتر، فإذا قلت إياك نعبد ونستعين، قد يتوهم أنك يمكن أن تجمع بين الاستعانة به سبحانه وبين الاستعانة بغيره، فيجوز إياك أعبد وأستعينك وأستعين غيرك، أما تكرار ضمير النصب المنفصل في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾ففيه رفع لهذا الاحتمال واحتياط للمعني، و«لتزيد لذة الخطاب والحضور، ولأن مقام العيان أعلى وأجلّ من مقام البرهان.. ولأن الحضور أدعَى إلى الصدق وبأن لا يكذب.. ولاستقلال كلٍّ من المقصدين»(28)، وفيه زيادة توكيد على توكيد.

وتكررت كلمة الصراط في السورة الكريمة﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِم﴾، وهذا التكرار تفصيل بعد إجمال، والنفس تترقب التفصيل إذا جاء المجمل، فإذا جاء التفصيل ورد على نفس متشوفة متشوقة؛ فيتمكن منها تمام التمكن. والآية جاءت شاملة لأصناف الناس في قبول الحق؛ فهم ثلاثة أقسام: قسم أنعم الله عليهم، قسم مغضوب عليهم، وقسم ضالون، وأسباب الخروج عن الصراط المستقيم إما الجهل أو العناد، والمغضوب عليهم هم المعاندون وعلى رأسهم اليهود، والضالون هم كل من أخرجه جهله عن الصراط المستقيم وعلى رأسهم النصارى.

وجاء النظم الكريم بأسلوب البدل أو عطف البيان دون أن يقال اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم المستقيم لفائدتين:الأولى: أن المقصود من الطلب ابتداء هو كون المهدى إليه وسيلة للنجاة واضحة سمحة سهلة، وأما كونها سبيل الذين أنعم الله عليهم فأمر زائد لبيان فضله. الفائدة الثانية: ما في أسلوب الإبدال من الإجمال المعقب بالتفصيل ليتمكن معنى الصراط للمطلوب فضل تمكن في نفوس المؤمنين الذين لقنوا هذا الدعاء فيكون له من الفائدة مثل ما للتوكيد المعنوي، وأيضا لما في هذا الأسلوب من تقرير حقيقة هذا الصراط، وتحقيق مفهومه في نفوسهم فيحصل مفهومه مرتين... ثم إن في اختيار وصف الصراط المستقيم بأنه صراط الذين أنعمت عليهم دون بقية أوصافه تمهيدًا لبساط الإجابة، فإن الكريم إذا قلت له أعطني كما أعطيت فلانًا كان ذلك أنشط لكرمه... مع ما في ذلك من التعريض بطلب أن يكونوا لاحقين في مرتبة الهدى بأولئك المنعم عليهم، وتهممًا بالاقتداء بهم في الأخذ بالأسباب التي ارتقوا بها إلى تلك الدرجات، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: 6]، وتوطئة لما سيأتي بعد من التبرئ من أحوال المغضوب عليهم والضالين فتضمن ذلك تفاؤلا وتعوذا»(29) وفي إعادة اللفظ ما يشعر بأن مدلوله بمحل العناية والاهتمام

---

(26) أسرار البلاغة: 8، والنص بلفظه في دلائل الإعجاز أيضًا: 524/ وراجع: علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة وسائل البديع د/ بسيوني عبد الفتاح فيود: 248 مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ط2/ 1429 هـ/2008م.

(27) علم البديع: د/ فيود: 248.

(28) إشارات الإعجاز: بديع الزمان:24.

(29) التحرير والتنوير: 1/ 193.

وأنه حبيب إلى النفس، وفيه تنبيه بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمنين، فدل عليه بأبلغ وجه كما تقول هل أدلك على فلان الأعز الأكرم، وفيه تأنيس لأهل الإيمان بأنهم ليسوا متفردين على الصراط المستقيم، فقد سلكه من كان قبلهم من المؤمنين ويسلكه من يأتي من المؤمنين بعدهم، وكل هذا لا يتحقق بغير هذا الأسلوب.

ثالثا: الانزياح في التراكيب والأساليب:

التعريف والتنكير:

ما يفيده الاسم في حال التعريف لا يفيده في حال التنكير، تبعا للمتكلم والمخاطب والموضوع وكأن هذا الأسلوب يشبه في بعض وجوهه المطلق والمقيد في أصول فقهنا الإسلامي.

وتطالعنا أول آية من السورة الكريمة بلفظ: الحمد المعرف بأل، دون التنكير ودون صيغة أخرى من صيغ الفعل؛ وذلك لأنه لو قال القائل: أحمد الله؛ أفاد ذلك أنه قادر على حمده، أما لو قال: الحمد لله، فقد أفاد أنه محمود قبل حمد الحامدين، وسواء أحمدوا أم لم يحمدوا، فهو محمود من الأزل إلى الأبد. والحمد لله معناه أن الحمد والثناء حق لله وملك له؛ فهو المستحق للحمد بسبب كثرة نعمه وأنواع آلائه على العباد. ولو قال: أحمد الله؛ لم يدل ذلك كونه مستحقا للحمد لذاته. وقولنا أحمد الله أو نحمد الله يفيد أن الحمد مختص بفاعل معين، هو المتكلم أو المتكلمون؛ لكن صيغة الحمد لله لا تختص بفاعل معين ولا زمن معين، وقولنا: أحمد أو نحمد يعني أن الحمد مختص بالزمن الحاضر أو المستقبل؛ لأن المضارع يدل على الحال أو الاستقبال، وهذا يعني أن زمن الحمد محدود بعمر الإنسان وحمد الله غير محدود وغير منقطع، وإذا قال أحمد الله وقلبه غافل فقد كذب على الله، فالحمد عمل قلبي بالمقام الأول، وإن قال الحمد لله فإنه يكون صادقا وإن كان غافلا، لأن الحمد حق لله وملكه[30]. وجملة { الْحَمْدُ لِلَّهِ } مفيدة لقصر الحمد عليه - سبحانه - نحو قولهم: الكرم فى العرب . كما أن أل فى الحمد " للاستغراق . أى: أن جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين فقد أفاد التعريف هنا ما لا يفيده التنكير من الاستغراق والقصر وأفاد ما لا يفيده الفعل من أزلية الحمد وأبديته.

وفي قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ قال الصراط المستقيم بالتعريف «لأنه لو قال اهدنا صراطا مستقيمًا لكان الداعي يطلب الهداية إلى صراط ما مستقيم، وليس ذلك مرادًا، بل المراد الهداية إلى الصراط المستقيم الذي يطلبه الله لأهل طاعته وجعله طريقًا إلى رضوانه وجنته، وهو دينه الذي لا دين له سواه»[31] وإنما قال سبحانه في مواضع أخرى: صراطا كما قال لنبيه ﴿**وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾ [الفتح:2] وقال: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾[الشورى:52] لأنها ليست في مقام الدعاء والطلب وإنما في مقام الإخبار، ويأت الصراط المستقيم معرفًا بلام العهد المشيرة إلى معروف في ذهن المخاطب قائم في خلده ولا تقدمه في اللفظ معهود تكون اللام راجعة إليه، وإنما تأتي اللام في أحد هذين الموضعين أن يكون لها معهود ذهني أو معهود ذكري لفظي، فإنه لما تقرر عند المخاطبين أن لله صراطا مستقيما هدى إليه أنبياءه ورسله وكان المخاطب عالما به دخلت عليه اللام فقال: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [32] .

الحذف:

---

(30) مفاتيح الغيب: 1/ 132.

(31) بدائع التفسير، الجامع لما فسره الإمام ابن قيم الجوزية، يسري السيد احمد، صالح أحمد الشامي: 1/ 67، ط1، دار بن الجوزي 1427هـ

(32) السابق: 1/ 67، 68.

حذف متعلق الجار والمجرور في بسم الله وتقديره: بسم الله أقرأ، «وتقديم المعمول هنا أوقع كما في ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾ وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنه أهم وأدل على الاختصاص، وأدخل في التعظيم، وأوفق للوجود؛ لأن اسمه تعالي مقدم على القراءة»[33]

وقد ذكر ابن القيم فوائد لحذف العامل في بسم الله يمكن إيجازها فيما يأتي:

أنه مقام لا ينبغي أن يتقدم فيه سوى ذكر الله، فلو ذكرت الفعل، وهو لا يستغني عن فاعله كان ذلك مناقضًا للمقصود فكان في حذفه مشاكلة اللفظ للمعنى، ويقدر الفعل متأخرًا، لأن المتعلق هو الأهم. وإذا حذف الفعل صح الابتداء بالتسمية في كل عمل وقول وحركة، وليس فعل أولى بها من فعل، فكان الحذف أعم من الذكر، لأن أي فعل يذكر يكون المحذوف أعم منه. والمتكلم بهذه الكلمة يدعي الاستغناء بالمشاهدة على النطق بالفعل، والحوالة على شاهد الحال أبلغ من الحوالة على شاهد النطق[34]

وبعض عبيد الملك إذا أرادوا شراء شيء من الخيل والبغال وغيره؛ فإنهم يضعون سمة الملك عليها لئلا يطمع فيها الأعداء، فكأنه –تعالى- يقول: إن لطاعتك عدوًا، وهو الشيطان، فإذا شرعت في أي عمل فاجعل عليه سمتي، وقل: بسم الله الرحمن الرحيم؛ حتى لايطمع العدو فيه[35]. ولعل هذا مما يستدل به من قال إن اسم أصلها من الوسم.

وقد ذكر الفعل في قوله ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وقد أجاب عن ذلك سيبويه حين قال: «فإن قلت فقد قال ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فقدم الفعل. قلت: هناك تقديم الفعل أوقع؛ لأنها أول سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم»[36] ويمكن القول بأن النظم الكريم قد أسقط الفعل والفاعل، تخفيفا، والمراد تنبيه الخلق من أول الأمر إلى التسهيل والتخفيف والمسامحة، وكأن الله جعل في أول كلمة في كتابة دليلًا على الصفح والإحسان[37]. وهذا من مُلَحِ الحذف

وقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ولم يقل بالله «لأن التبرك والاستعانة بذكر اسمه، أو للفرق بين اليمين والتَّيَمُّن»[38]، «واسم الله هو الذي تمكن مقارنته للأفعال لا ذاته تعالى ... فاستعمال لفظ الاسم في هذا بمنزلة استعمال سمات الإبل عند القبائل، وبمنزلة استعمال القبائل شعار تعارفها واستعمال الجيوش شعارهم المصطلح عليه. والخلاصة أن كل مقام يقصد فيه التيمن والانتساب إلى الرب الواحد الواجب الوجود، يعدى فيه الفعل إلى لفظ الجلالة كقوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾»[39]، والباء لمعنى الملابسة أعرب وأحسن من جعلها للآلة، لما فيه من زيادة التبرك بملابسة جميع أجزاء الفعل لاسمه تعالى[40]. القائل: باسم الله يعلن أنه وكيل عن الله في التصرف، فهو يتصرف باسمه ثم هو مدعوم منه ومؤيد به ... وحتى استعار معنى المندوبية، والدعم بعض الحكام فيقولون في بداية خطابهم باسم الشعب فكأنهم وكلاء عن شعوبهم معبرون عن إرادتها ومؤيدون بها.

حذف حرف الجر:

حروف الجر تعمل على الربط والإيصال بين المعاني والإبانة عن الدلالات، يقول سيبويه: «أما الباء وما أشبهها فليست بظروف ولا أسماء، ولكنها يضاف الاسم بها إلى ما قبله أو بعده... وإذا قلت مررت بزيد، فإنما أضفت المرور إلى زيد بالباء، وكذلك هذا لعبد الله. وإذا قلت: أنت كعبد الله، فقد أضفت إلى عبد الله الشبه بالكاف»[41].

---

(33) تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمربن محمد الشيرازي البيضاوي، تقديم، محمود عبد القادر الأرناؤوط: 1/ 11، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 2001م.

(34) بدائع الفوائد: 1/ 28.

(35) مفاتيح الغيب: 1/ 27.

(36) الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، طبعة الهيئة العامة للكتاب سنة 1988م. 1/ 420، 421

(37) مفاتيح الغيب:1/ 27.

(38) تفسير البيضاوي: 12

(39) التحرير والتنوير: 1/ 147.

(40) الكشاف: 1/ 40.

(41) الكتاب: 1/ 420، 421.

والعرب قد يحذفون الحرف تخفيفا في الاستعمال عندما يقوى الفعل الذي لا يصل إلى مفعوله إلا بحرف الجر «وزعم الخليل أن قولهم: لاهِ أبوك، ولقيته أمسِ، إنما هو على لله أبوك، ولقيته بالأمسِ؛ ولكنهم حذفوا الجار والألف واللام تخفيفًا على اللسان. وليس كل جار يضمر؛ لأن المجرور داخل في الجار، فصار عندهم بمنزلة حرف واحد، ولكنهم قد يضمرونه ويحذفونه فيما كثر من كلامهم؛ لأنهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج»[42]

ومن مواضع الحذف حذف متعلق نستعين فاللغة تقتضي أن الاستعانة تكون على شيء يعجز المرء عن فعله بنفسه كما قال ربنا على لسان المشركين ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان:4] فحُذف متعلق ﴿نَسْتَعِينُ﴾ الذي حقه أن يذكر مجرورا بعلى، وقد أفاد هذا الحذف إلهام عموم الاستعانة المقصورة على الطلب من الله تأدبًا معه تعالى، ومن توابع ذلك وأسبابه، وهي المعارف والإرشادات والشرائع وأصول العلوم، فكلها من الإعانة المطلوبة، وكلها من الله تعالى؛ فهو الذي ألهمنا مبادئ العلوم، وكلفنا الشرائع ولقننا النطق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، فالأول إيماء إلى طريق المعارف وأصلها المحسوسات وأعلاها المبصرات، والثاني إيماء إلى النطق والبيان للتعليم، والثالث إلى الشرائع.»[43]

وأحيانا يأتي الفعل استعان متعديا بالباء كما قال تعالى على لسان الكليم لقومه ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، والباء من معانيها الاستعانة والإلصاق: فعندما تقول كتبت بالقلم وبريت بالمُدية، ونحو ذلك أي: استعنت بهذه الأدوات على هذه الأفعال، وهذا معناه أنك تمتلك القدرة على الفعل إلا أنك تحتاج الأداة، وعلى هذا فقولك: استعنت بفلان معناه كانت لي قدرة وجعلت فلانا وسيلتي أو أداتي، أما استعنته فمعناه لم تكن لي قدرة على العمل أصلا، وقول لموسى لبني اسرائيل ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾، إنما أراد أن يقول لهم إن لكم قدرة على الفعل فلا تتكلوا على غيركم، وفي الوقت ذاته لاتركنوا إلى قدرتكم واستعينوا بالله، لذا جاء في الحديث (وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ)[44] ولم يقلﷺ : واستعن الله ؛ لأنه نهى عن العجز بعدها، والعجز لأن العجز يعني الضعف ونقيض الحزم، والنهي عنه معناه أن الله قد أعطى لكل إنسان تقدره تؤهله أن يقوم بما طلب منه، فلا يركن لضعفه ولا يترك حزمه[45]

ومن مواضع حذف حرف الجر في الفاتحة حذف حرف (اللام) أو حرف (إلى) من قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وتقدير الكلام: اهدنا إلى الصراط المستقيم، أو للصراط المستقيم، إذ إن «هدى أصله أن يتعدى باللام أو بإلى كقوله تعالى ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ فعومل معاملة (اختار) في قوله تعالى في قوله: ﴿**وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ**﴾ »[46]. معنى هذا أن الفعل هدى يتعدى إلى المفعول الأول بنفسه، وإلى المفعول الثاني بحرف الجر، وذهب الأخفش أنه يتعدى بنفسه إلى مفعولين في لغة أهل الحجاز: تقول: هديته الطريق[47] وفي القرآن﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ وعلى أية حال فقد جاء النظم الكريم بلفظ الهداية مجردًا عن حروف الجر، فلماذا؟

يرى بعض الباحثين أن الهداية إما أن يراد منها:التوفيق والإيصال، وإما أن يراد بها الدلالة والإرشاد، فإذا أسند الفعل إلى اسم الجلالة رأيناه في أكثر الآيات يتعدى بنفسه، وقد يتعدى بحرف الجر على قلة، وإذا جاء مسندًا لغير الله تعالى، اسم الجلالة فلابد من أن يتعدى بحرف الجر.... قال سبحانه: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ، وقال سبحانه: ﴿**وَيَهْدِيَكَ**

(42) الكتاب: 2/ 162، 163.
(43) التحرير والتنوير:1/ 182.
(44) رواه مسلم: كتاب القدر، باب: في المر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله.
(45) لسان العرب: عجز.
(46) الكشاف: 1/ 57.
(47) الكشاف: 1/ 57.

صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أما ما أسند فيه لغير الله تعالى فيتعدى بحرف الجر، مثل قوله: ﴿**وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ**﴾ قال تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ والحقيقة أن الفعل إذا تعدى بنفسه تارة وبالحرف تارة أخرى فلابد أن يكون له في كل حالة معنى، وإن عدي بحرفين مختلفين فلابد أن يكون له مع كل حرف معنى، وبناء على ذلك فإن الفعل إذا عدي بإلى تضمن معنى الوصول إلى الغاية فجيء بحرف الغاية في نحو قول الله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ ، ومتى عدي باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ** ﴾ أي مختصا بالهداية للتي هي أقوم، وإذا تعدى بنفسه تضمن المعنى الجامع لذلك كله، وهو التعريف والبيان والإلهام.

والمسلم إذا قال اهدنا الصراط المستقيم تضمن دعاؤه أنه يطلب من الله أن يعرفه الطريق ويبينه له، ويرشده إليه ويلهمه إياه ويقدره عليه، ويجعله ممن اختصهم بصراطه المستقيم[48].

في ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حذف حر الجر الذي يأتي مع فعل الاستعانة، ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ والباء يقال لها باء الاستعانة، والحذف هنا يقصد به التجرد من حول العبد وقوته، فقد يكون المرء ضعيفًا لا يستطيع أن يبلغ درجة الإتقان في العمل فيستعين بغيره، أما إن لم يكن له قدرة أصلًا فهو يستعين غيره.

التعبير بالاسم الموصول:

استخدم النظم الكريم التعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ لإفادة تعظيم المنعم عليهم بنعمة الله، وإفادة التعميم؛ فالمنعم عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، كما أن جملة الصلة لابد أن يكون قد سبق من السامع علم بها، فالنعم التي يرفل فيها الخلق معلومة لأهل الإيمان، كيف وهم يتعبدون إلى الله بالنظر في آيات النفس والآفاق، «ومن شأن الموصول أن يكون معهوداً نَصْبَ العين للسامع - إشارة إلى علو شأنهم وتلألئهم في ظلمات البشر، كأنهم معهودون نصب العين لكل سامع، وإن لم يتحرَّ ولم يطلب.. وفي جمعيته رمز إلى إمكان الاقتداء بهم وحقانية مسلكهم بسر التواتر إذ (يَدُ الله مَعَ الْجَمَاعَةِ)»[49]، ولأن الذين اسم مبني يحتاج إلى صلة وعائد، فكأنهم هنا يتضرعون إلى الله تعالى أن يصلهم بجلائل النعم التي يعود عليهم خيرها في الدنيا والآخرة، وقد قال ابن عنين الشاعر للملك المعظم عيسى بن أبي بكر الأيوبي، حين مرض ولم يعده وانقطعت عنه صلاته:

انْظُـــرْ إِلَـــيَّ بِعَـــيْنِ مَـــوْلًى لَـــمْ يَـــزَلْ	**يُـــولِي النَّـــدَى وَتَـــلَافَ قَبْـــلَ تَلَافِـــي**
أَنَـــا كَالَّـــذِي أَحْتَـــاجُ مَـــا يَحْتَاجُـــهُ	**فَـــاغْنَمْ دُعَـــائِي وَالثَّنَـــاءَ الْـــوَافِي**[50]

فأتاه وأعطاه صرة فيها دنانير، وقال: هذه الصلة، وأنا العائد[51].

وذكر السهيلي أن إضافة الصراط للاسم الموصول تحقق فائدتين: «الأولى: نفي التقليد عن القلب، واستشعار العامل بأن من هدي إلى الصراط المستقيم فقد أنعم الله عليه، ولو ذكرهم بأعيانهم لم يكن فيه هذا المعنى، الثانية: أن الآية عامة في طبقات المسلمين مسيئهم وصالحهم، والمسيء لا يطلب درجة العالي، حتى ينال الذي هو أقرب إليه، ولفظ الذين.... يشمل الجميع، وجميع المأمورين

---

(48) انظر: بدائع التفسير ابن القيم: 1/ 226، 227.
(49) إشارات الإعجاز: النورسي: 29،
(50) الخبر في ترجمة الملك المعظم في وفيات الأعيان (3/ 496)
(51) الأزهار الفائحة في شرح الفاتحة: جلال الدين السيوطي، تحقيق د/ عبد الحكيم الأنيس: 35، 36 الطبعة الأولى مكتبة الشروق الدولية.

بهذا الدعاء يطلبون صراط الذين أنعم الله عليهم، وهم أصناف كما أن السائلين لدرجاتهم أصناف»[52] ففي التعبير بالاسم الموصول اعتراف من العبد بأن هداية الجميع محض فضل من الله وأنه يريدأن ينال مراتب من فوقه مرتبة بعد مرتبة

التقديم والتأخير:

تقديم اسم الجلالة على اسم (الرحمن) واسم (الرحيم):

تقدم اسم الله على اسمه الرحمن واسمه الرحيم لأن اسم الجلالة هو العلم المشهور المختص بالذات الإلهية «ولأن من شأن العرب إذا أرادوا الخبر عن مخبر عنه أن يقدموا اسمه ثم يتبعوا صفاته ونعوته... ولله جل ذكره أسماء قد حرم على خلقه أن يتسموا بها، خص بها نفسه دونهم، وذلك مثل الله والرحمن والخالق، وأسماء أباح لهم أن يسمي بعضهم بعضا بها، وذلك كالرحيم والسميع والبصير... وكان من الواجب أن تقدم أسماؤه التي هي له خاصة دون جميع خلقه ليعلم السامعُ ذلك مَنْ توجه إليه الحمدُ والتمجيدُ ثم يتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمى بها غيره»[53] ولأن اسم الجلالة: الله « إشارة إلى القهر والقدرة والعلو، ثم ذكر عقيبه الرحمن الرحيم، وذلك يدل على أن رحمته أكثر وأكمل من قهره»[54]. أو نقول رحمته سبقت غضبه، فإن المقارنة بأفعل من تفيد نقصان في ناحية وزيادة في أخرى، والكمال لا ينفك عن أسمائه وصفاته، فهو كامل في رحمته كامل في قهره ... وإن كان يغضب إلا أنه ليس من أسمائه.

وفى تقديم اسم الرحمن على الرحيم سر بديع لأن القياس يقتضي الترقي من الأدنى إلى الأعلى، لتقدم رحمة الدنيا، ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها، وذلك لا يصدق على غيره»[55] وقد «بدأ الله جل ذكره باسمه الله لأن الألوهية ليست لغيره... لا من جهة التسمي بها ولا من جهة المعنى... ثم ثنى باسمه الرحمن؛ إذ كان قد منع خلقه أيضا التسمي به، وإن كان من خلقه من يستحق تسميته ببعض معانيه، وذلك أنه قد يجوز وصْف كثير ممّن هو دون الله من خلقه، ببعض صفات الرحمة. وغير جائز أن يستحق بعضَ الألوهية أحد دونه. فلذلك جاء الرحمن ثانيًا لاسمه الذي هو الله. وأما اسمه الذي هوالرحيم فهو جائز وصْف غيره به»[56] ولأن الرحمن يتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها،أردفه الرحيم كالتتمة والرديف؛ ليتناول ما دق منها وما لطف، فاسمُه {الرحمن} يقتضي إيجادَ الأشياء وإبرازها، واسمه {الرحيم} يقتضي تربيتَها وإمدادها.[57] ولا شك أن الإيجاد متقدم على الإمداد، أو لا يتصور إمداد لمعدوم، فالإمداد متوقف على الإيجاد أولًا. وهذا وجه تقديم اسم الله على اسمه الرحمن، واسمه الرحمن على اسمه الرحيم«لأن الكبير العظيم لا يطلب منه الشيء الحقير اليسير، حكي أن بعضهم ذهب إلى بعض الأكابر فقال: جئتك لمهم يسير فقال: اطلب للمهم اليسير رجلاً يسيراً، كأنه تعالى يقول: لو اقتصرت على ذكر الرحمن لاحتشمت عني، ولتعذر عليك سؤال الأمور اليسيرة، ولكن كما علمتني رحماناً تطلب مني الأمور العظيمة، فأنا أيضاً رحيم؛ فاطلب مني شراك نعلك وملح قدرك، كما قال تعالى لموسى: يا موسى سلني عن ملح قدرك وعلف شاتك»[58]

---

(52) نتائج الفكر: 137
(53) جامع البيان في تأويل القرآن: ابن جرير: 1/ 133، تحقيق أحمد شاكر.
(54) البيضاوي: 1/ 13.
(55) البيضاوي: 1/ 13.
(56) ابن جرير: 1/ 133
(57) البحر المديد: ابن عجيبة: 1/ 29.
(58) مفاتيح الغيب: 1/ 27.

والرحمن يدل على الصفة القائمة به سبحانه وتعالى، والرحيم دالة على تعلقها بالمرحوم، كأن الأول الوصف، والثاني الفعل، فالرحمن صفته، والرحيم صفة فعله، ودليل ذلك ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ ﴿**إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾، ولذلك كان رحمن، أي: موصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، والصفة الدالة على الاتصاف الذاتي أولى بالتقديم في الذكر من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها(59)،وفائدة الجمع بين الصفتين وإن كانتا من باب واحد «الإنباء عن رحمة عاجلة ورحمة آجلة، أو عن رحمة عامة وأخرى خاصة حاصلتين لقارئ القرآن»(60) ثم الرحمن على وزن فعلان من الصفات العارضة المؤقتة لكنها تعبر عن امتلاء صاحبها بالصفة وصدور أفعاله عنها فالغضبان مملوء غضبا وتصدر كل أفعاله عن غضبه لكنه مؤقت وعارض وكذلك العطشان والفرحان والشبعان والجوعان، أما الرحيم فعلى وزن فعيل وهو المعبر عن تأصل الصفة وثباتها وديمومتها كجميل وعليم وحليم ووسيم، فالرحمن سبحانه الذى تصدر كل أفعاله عن رحمته حتى ابتلاؤه لعباده وتقديره بعض أرزاقهم، لكنها ليست رحمة عارضة فجيء باسم الرحيم ليبين دوامها وثباتها، ولينفي عن الأوهام ما لا يتناسب مع جلال الألوهية وجمال الرحمة.

تقديم الرحمن الرحيم على مالك يوم الدين:

قد يجتري العبد إذا علم سعة رحمة الله تعالى، ولهذا لما وصف نفسه بالربوبية والرحمة «خيف أن تكون تلك الأوصاف... مخففا عن المكلفين عبء العصيان لما أمروا به ومثيرا لأطماعهم في العفو عن استخفافهم بذلك، وأن يمتلكهم الطمع فيعتمدوا على ما علموا من الربوبية والرحمة المؤكدة فلا يخشوا غائلة الإعراض عن التكاليف»(61) فأتبع ذلك بوصفه (مالك يوم الدين) ليجمع بين الترغيب والترهيب.

تقديم العبادة على الاستعانة:

تقدمت العبادة على الاستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و«تقديم العبادة على الاستعانة ... من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذا العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته واسمه (الله) ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته واسمه (الرب) فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة، ولأن إياك نعبد قسم الرب، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الرب تعالى لكونه أولى به، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد فكان من الشطر الذي له وهو اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة، ولأن العبادة تتضمن الاستعانة من غير عكس... والاستعانة جزء من العبادة من غير عكس... والاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له، والعبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص وغير مخلص.. ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك والاستعانة طلب العون، وهو صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته»(62) وإذا كانت العبادة من كسب العبد بتوفيق الله؛ فقد أردفها ربنا بالاستعانة؛ لئلا يغتر العبد فيتوهم أنه مستغنٍ بكسبه عن عناية ربه. وقدمت العبادة لأنها أنسب للجزاء ويوم الدين الذي سبقها، والاستعانة أنسب لطلب الهداية الذي ورد بعدها.

---

(59) التحرير والتنوير: 1/ 72

(60) نتائج الفكر في النحو: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحقيق: الشيخ: علي أحمد عبد الموجود، والشيخ: علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 1412 هـ/1992م. ص43.

(61) التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت،لبنان الطبعةالأولى، 1420هـ/2000م

(62) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت 1393 هـ/1973م، ص: 1/ 76

تقديم المعبود المستعان في (إياك نعبد وإياك نستعين):

في تقديم ضمير المفعول في قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الأدب مع الله بتقديم الضمير العائد على اسمه على فعل العباد من ناحية، وفيه حصر وقصرمن ناحية أخرى، فهو في قوة لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك.:وفيه تعريض بمن يعبد غير الله ويستعين بغيره تعالى»[63] والقرآن راعى الشكل حين أخر الفعل (نستعين) وراعى المضمون حين قدم المفعول (إياك) وهذا يعني أن التقديم والتأخير لم يخل بالمعنى،بل أفاد قيمة إيمانية عالية تحتاط لتجرد العبادة والاستعانة بالله وحده، إلى جانب ما وفره من قيمة موسيقية.

تقديم المغضوب عليهم على الضالين:

إن اليهود هم المغضوب عليهم الذين عرفوا الحق وأنكروه، أو هم ممن غضب الله عليهم وقد كانوا متقدمين في الزمان على النصارى الضالين، وكان اليهود مجاورين للنبي في المدينة، والنصاري كانوا نائين عنه، ولأن اليهود أغلظ كفرا من النصارى، ولهذا كان الغضب أخص بهم، وليس عقوبة من جهل كعقوبة من عاند؛ فالمغضوب عليهم أكثر مذمة وأشد إثما؛ لأنهم عصوا الله عن تعمد، لذا كانوا أولى بالتقديم؛ للتنبيه على أول الأمر على الحذر من صفاتهم، ولأن ذكر المنعم عليهم قد تقدم والغضب ضد الإنعام، والسورة هي السبع المثاني الذي يذكر فيها الشيء ومقابله؛ وذكر المغضوب عليهم بعد المنعم عليهم فيه من الازدواج والمقابلة ما ليس قي تقديم الضالين، فقولك: الناس منعم عليه ومغضوب عليه؛ فكن من المنعم عليهم أحسن من قولك: منعم عليه وضال[64]، وفي عطف الضالين على المغضوب عليهم سر بلاغي قائم على بلاغة الترقي لأن العطف هنا:ارتقاء في التعوذ من شر سوء العاقبة لأن التعوذ من الضلال الذي جلب لأصحابه غَضَبَ اللَّهِ لا يغني عن التعوذ من الضلال الذي لم يبلغ بأصحابه تلك الدركات وذلك وجه تقديم (المغضوب عليهم) على (ولا الضالين)، لأن الدعاء كان بسؤال النفي، فالتدرج فيه يحصل بنفي الأضعف بعد نفي الأقوى، مع رعاية الفواصل»[65] وذلك دليل يدل على أن الفاصلة في القرآن تابع للمعنى، وأن المعنى لا يتبع الفاصلة، والقرآن يقدم للفاصلة تمهيدا تأتي به متمكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها غير نافرة ولا قلقة يتعلق معناها بمعنى الكلام تعلقًا تامًا بحيث لو خرجت اختل المعنى واضطرب الفهم.

الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

للالتفات سر عام وهو تطرية نشاط السامع وتحريك الذهن للإصغاء والانتباه، والاستجابة إلى ميلان نفس المخاطب أيضا ذلك أنه:إذا ذكر محاسن شخص أو مساويه شيئاً فشيئاً يتزايد بحكم الإيقاظ والتهييج ميلانُ استحسان أو ميل نفرة. ويتقوى ذلك الميل شيئاً فشيئاً إلى أن يجبر صاحبه على المشافهة مع ذلك الشخص، وبالنظر إلى المقام يقتضي ميولات السامعين لأوصافه أن يحضر المتكلم ذلك الشخص ويجره إلى حضورهم فيتوجه اليه بالخطاب..

وفيه نكتة خصوصية هنا: وهي تخفيف أعباء التكليف بلذة الخطاب.. وفيه أيضاً إشارة إلى أن لا واسطة في العبادة بين العبد وخالقه.»[66] وهذه طريقة العرب في مخاطباتهم «أفتراهم يحسنون قرى الأشباح، فيخالفون فيه بين لون ولون وطعم وطعم ولا

(63) التحرير والتنوير: 1/ 185.
(64) بدائع الفوائد: 2/ 269.
(65) التحرير والتنوير: 1/ 196، 197.
(66) إشارات الإعجاز: بديع الزمان سعيد النورسي: 166.

يحسنون قرى الأرواح فلا يخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب»[67] و«الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاها فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال»[68]. وهذا ارتفاع بالمرء إلى رتبة الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه)، ومما يزيد الالتفات وقعا في الآية أنه تخلص من الثناء إلى الدعاء، ولا شك أن الدعاء يقتضي الخطاب فكان قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تخلصا يجيء بعده ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ ونظيره في ذلك قول النابغة في رثاء النعمان الغساني:

أبى غفلتي أني إذا ما ذكرته   تحرك داء في فؤادي داخلُ

وأن تلادى إن نظرت وشكتي   ومهري وما ضمت إلي الأناملُ

حباؤك والعيس العتاق كأنها   هجان المهى تزجي عليها الرحائلُ[69]

والكلام من أول الفاتحة إلى مالك يوم الدين كله ثناء على الله تعالى، والثناء يكون في الحضور والغيبة، والثناء في الغيبة أصدق وأولى، أما ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فهو دعاء والدعاء في الحضور أولى وأجدى؛ إذن الثناء في الغيبة أولى والدعاء في الحضور أولى، والعبادة تؤدى في الحاضر وهي أولى»[70].

وجاءت السورة الكريمة بأسلوب الغيبة ثم التفت النظم من الغيبة للخطاب و«إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الحمد دون العبادةِ ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر فقال ﴿الحمدُ لله﴾ ولم يقل (الحمد لك) ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فخاطب بالعبادة إصراحاً بها وتقرباً منه عزّ اسمه بالانتهاء إلى محدود منها»[71] وبهذا يؤدي أسلوب الالتفات غرضا تصويرا ومعنويا لا يتم بدونه.

إسناد الفعل (أنعمت) إلى ضمير الجلالة، والعدول عن ذكر فاعل الغضب:

في إسناد الفعل إلى ضمير الجلالة، فيه تنويه بشأنهم خلافًا لغيرهم من المغضوب عليهم والضالين، والسر في استعمال لفظ المغضوب عليهم أنه (ﷺ) قال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة ثم قال ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ عطفاً على الأول، لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمهِ فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفاً عن ذكر الغاضب فأسند النعمة إليه لفظاً، وزوى عنه لفظ الغضب تحنناً ولطفاً»[72] «وأضاف النعمة إليه وحذف فاعل الغضب لوجوه

منها أن النعمة هي الخير والفضل، والغضب من باب الانتقام والعدل والرحمة تغلب الغضب فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين وأسبقهما وأقواهما وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعم إليه وحذف الفاعل في مقابلتهما كقول مؤمني الجن ﴿**وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ** أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ومنه قول الخضر في شأن الجدار واليتيمين ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا**﴾ وقال في خرق السفينة ﴿**فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ وتأمل قوله تعالى

---

(67) مفتاح العلوم: أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي: 290، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، تحقيق عبد الحميد هنداوي، 1420 هـ/2000م.

(68) التحرير والتنوير: 1/ 176، 177.

(69) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أو الفضل إبراهيم،ط2، دار المعارف، مصر، 1985، ص: 119.

(70) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل صالح السامرائي. ط3،دار عمار بيروت .1423هـ/2003م.ص:48.

(71) المثل الثائر في ادب الكاتب والشاعر: ابن الأثير: تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد: 2/ 5.

(72) المثل الثائر: 2/ 5. وانظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي: 147،ط، دار صادر بيروت (د،ت) وانظر: التحربر والتنوير: 1/ 193.

﴿**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ**﴾ وقوله ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ**﴾ وقوله ﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ**﴾ ثم قال ﴿**أُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ**﴾. فى قراءة وأحل لكم بفتح الهمزة إسناد الحل إلى ضمير الجلالة.

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم. وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر؛ فكل الخلق في نعمه وهذا فصل النزاع في مسألة هل لله على الكافر من نعمة أم لا؛ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**﴾ والنعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر والمؤمن والكافر، وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم ﴿**وَمَا** بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ **اللَّهِ**﴾ فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقا ومجرى للنعمة، وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى بل ملائكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه فكان في لفظة المغضوب عليهم بموافقة أوليائه له من الدلالة على تفرده بالإنعام وأن النعمة المطلقة منه وحده هو المنفرد بها ما ليس في لفظة المنعم عليهم

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره وتصغير شأنه؛ ما ليس في ذكر فاعل النعمة من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره ورفع قدره ما ليس في حذفه فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ورفع قدره؛ فقلت هذا الذي أكرمه السلطان وخلع عليه وأعطاه ما تمناه كان أبلغ في الثناء والتعظيم من قولك هذا الذي أكرم وخلع عليه وشرف وأعطى. وتأمل سرا بديعا في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح وهي الهدى ودين الحق ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء فهذا تمام النعمة ولفظ أنعمت عليهم يتضمن الأمرين

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضا أمرين الجزاء بالغضب الذي موجبه غاية العذاب والهوان والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه، فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإن من ضل استحق العقوبة التي هي موجب ضلاله وغضب الله عليه،فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام واقتضاه أكمل اقتضاء في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة مع ذكر الفاعل في أهل السعادة وحذفة في أهل الغضب وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال»[73]:وفي تخصيص أهل الصراط المستقيم بالنعمة دليل على أن النعمة المطلقة، هي الموجبة للفلاح الدائم وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر فكل الخلق في نعمة»[74]:والعدول عن إسناد الغضب إليه تعالى جرى على منهاج الآداب التنزيلية في نسبة النعم والخيرات إليه عز وجل دون أضدادها كما في قوله تعالى: ﴿**الذي خلقني فهو يهدين** .... وإذا مرضت فهو يشفين﴾ ﴿وَأَنَّا **لَا نَدْرِي أَشَرٌّ** أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾»[75]

(غير) و(لا)النافيتان:

جاء النظم الكريم باستعمال (غير) في موضعها و(لا) في موضعها، فقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ ولم يقل: لا المغضوب لأن (لا) العطف بها بعد الإيجاب، تقول جاءني زيد لا عمرو، أما غير فتكون تابعة لما قبلها وهي صفةٌ ليس إلا، وإخراج الكلام مخرج الصفة أحسن من إخراجه مخرج العطف، لأنه إذا قيل: صراط الذين أنعمت عليهم لا المغضوب عليهم، أفاد العطف بها نفي إضافة

---

(73) التفسير القيم: 1/ 11، 12، جمعه محمد أويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي ط دار الكتب العلمية، ومدارج السالكين: 1/ 14

(74) التفسير القيم: 1/ 11

(75) تفسير أبي السعود: 1/ 19 ش

الصراط إلى المغضوب عليهم، كما هو مقتضى العطف حين تقول: جاء زيد لا عمرو فأثبت المجيئ لزيد ونفيته عن عمرو، أما الآية فغير صفة لما قبلها، «و(غير) كلمة تفيد المغايرة بمعنى أن تفيد مغايرة مجرورها لموصوفها إما ذاتا أو صفة»(76) فأفاد الكلام معها وصف الذين أنعم الله عليهم بوصفين: أنهم منعم عليهم، وأنهم غير مغضوب عليهم، فأفادت ما يفيد العطف مع زيادة الثناء عليهم ومدحهم، فجاء العطف متضمنا صفتين: صفة ثبوتية وهي: كونه منعما عليهم، وصفة سلبية: وهي كونهم غير مستحقين لوصف الغضب، وأنهم مغايرون لأهله، وفيه فائدة أخرى، وهي أن أهل الكتاب يظنون أنهم هم المنعم عليهم دون أهل الإسلام ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فكأنه قيل لهم: المنعم عليهم غيركم لا أنتم، وقيل للمسلمين: المغضوب عليهم غيركم، لا أنتم(77). وبذلك تكون غير قد عملت عملها في القصر والحصر والنفي والإثبات، كما عملت عملها في الرد على دعوى اليهود. وجاء النفي بلا قبل الضالين، فلم لا يقال: غير المغضوب عليهم والضالين. تأكيدا للمعنى المراد، وفيها ائتلاف مع (غير) لما تضمنته من معنى النفي، كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين. وذكر ابن القيم أسرارا أخرى منها: أن العطف أكد بها على المغايرة بين النوعين، وبين كل نوع بمفردة؛ فلو لم يذكر (لا) وقيل: غير المغضوب عليهم والضالين؛ أوهم أن المراد ما غاير المجموع المركب من النوعين، لا ما غاير كل نوع بمفرده؛ فإذا قيل: ولا الضالين، كان صريحًا في أن المراد: صراط غير هؤلاء وغير هؤلاء، ومنها أن العطف بها رفع توهم أن الضالين وصف للمغضوب عليهم وأنهما صنف واحد، وصفوا بالغضب والضلال، وأن العطف دخل بينهما كما يدخل في عطف الصفات بعضها على بعض، فلما دخلت (لا) عُلِمَ أنهما صفتان متغايرتان. ومنها: أن المجيء بها أحسن في الأسلوب مما لو قيل غير المغضوب عليهم وغير الضالين؛ لأنها أقل حروفا من غير من ناحية ولتفادي التكرار والثقل الحاصل بالنطق بـ(غير) مرتين من ناحية أخرى. ومنها أن الإتيان بـ(لا) مؤذن بنفي الغضب عن أصحاب الصراط المستقيم، كما نفي عنهم الضلال؛ لأن (لا) إنما يعطف بها بعد النفي فهي أدخل في النفي من (غير)(78). وبذلك يكون النظم الكريم قد راعى الشكل حين عدل عن (غير) في هذا الموضع كما راعى المضمون.

وفي مجموع ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ نجد تقابلا فنيا عجيبا لأن الإنعام حفظ من الله ورحمة، والغضب والضلال ضياع ونقمة، فهذا التقابل جاء بين الهداية والنعمة من ناحية، والغضب والضلال من ناحية أخرى، فذكر تعالى المغضوب عليهم والضالين في مقابلة المنعم عليهم. ولأن المنعم عليه من وفق للجمع بين معرفة الحق لذاته، والخير للعمل به، وكان المقابل من اختل إحدى قوتيه العاقلة أو العاملة فضل الطريق، ولم يهتد إليه أو عرف الطريق ولم يسلكه إلى الغاية.

رابعا: الانزياح المعجمي والصرفي:

جاء كل لفظ وكل صيغة في السورة الكريمة في الموضع اللائق الذي لا يليق بغيره مما قد يشترك معه في بعض معانيه من ذلك التعبير بالحمد دون غيره مما يرادفه أو يشاركه في بعض معانيه كالشكر والثناء والمدح ذلك لأن الحمد أولى من الشكر، لأن قولنا: الحمد لله ثناء على الله بسبب كل إنعام صدر منه ووصل إلينا، أو إلى غيرنا، أما الشكر فهو ثناء بسبب إنعام وصل إلى ذلك القائل، ولا شك أن الحمد أوقع هنا، كأن العبد وهو يناجي ربه كل يوم في صلواته يقول لربه: سواء أعطيتني أم لم تعطني، فإنعامك واصل إلى كل العالمين، وأنت مستحق للحمد العظيم، كما أن «الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله مع محبته والرضا عنه والخضوع له؛ فلا يكون حامدًا من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما

---

(76) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ضبط وتشكيل وتصحيح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، ط، دار الفكر، بيروت لبنان، 1415 هـ/1995م. 2/ 308.

(77) بدائع التفسير، الجامع لما فسره الإمام بن قيم الجوزية، يسري السيد احمد، صالح أحمد الشامي: 1/ 75، 76، ط1، دار بن الجوزي 1427هـ

(78) بدائع التفسير: 1/ 83، 84.

كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمدُه أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها»[79]. والحمد ثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل، وهي الصفات الذاتية كالعلم، أو بالفواضل كالبر، والحمد لا يكون إلا للحي العاقل. أما الشكر فهو تعظيم المنعم لأجل النعمة سواء أكان نعتا باللسان، أو اعتقادا أو محبة بالجنان، أو عملًا وخدمة بالأركان. والحمد أعم من حيث إنه يعم النعمة وغيرها. فالشكر معروف يقابل النعمة سواء أكان باللسان أو اليد أو القلب، وليس على فضيلة في الإنسان؛ فلا يقال: شكرته لشجاعته؛ وإنما يقال: حمدته لشجاعته[80].

والفرق بين الحمد والمدح، أن المدح للحي وغيره كاللؤلؤ واليواقيت الثمينة، والحمد للحي فقط، فرثاء الأموات نوع من المدح، ولا يقال هو حمد للأموات. والمدح قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، والحمد لا يكون إلا بعد الإحسان، والمدح قد يكون منهيًا عنه،قَالَ رَسُول اللَّهِ: " إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ " [81] أما الحمد فمأمور به مطلقًا، و الحمد نقيضه الذم، والمدح نقيضه الهجاء.[82] والشكران نقيضه الكفران قال الخطابي«يتميز الشكر عن الحمد في أشياء، فيكون الحمد ابتدأ بمعنى الثناء، ولا يكون الشكر إلا على الجزاء، تقول حمدت زيدا إذا أثنيت عليه في أخلاقه ومذاهبه، وإن لم يكن سبق إليك منه معروف، وشكرت زيدا إذا أردت جزاءه على معروف أسداه إليك، ثم قد يكون الشكر قولا كالحمد، ويكون فعلا كقول الله عزو جل ﴿ اعملوا آل داود شكرا،... وقد يكون الحمد على المحبوب والمكروه، ولا يكون الشكر إلا على المحبوب»[83] فيمكن القول بأن الحمد على الخصال، والشكر على الفعال. فالله محمود بذاته قبل أن يخلق أهل شكره.

أما لفظ الثناء فيستعمل في المدح ويستعمل في الذم وفي الحديث قول النبي الكريم: (هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة، وهذا أثنيتم عليه شرا فوجبت له النار أنتم شهداء الله في الأرض) [84]، لذلك عدل النظم الكريم عن كل هذع الألفاظ إلى لفظ الحمد وعدل إلى التعرف في لفظة العالمين لأن «التعريف يفيد عموم ربوبية الله تعالى لكل أنواع الخلق»[85] وجمع ولم يأت مفردا فيقال (العالم) لأن الجمع قرينة على الاستغراق؛ إذ لو أفرد لتوهم أن المراد منه التعريف العهد أو الجنس، فكان الجمع تنصيصا على الاستغراق[86]، واستعمل الصيغة الخاصة بجمع العقلاء ولم يقل: العوالم؛ لأن المقام مقام حمد، فلما حمدت العوالم كلها أحياء وجمادات، عقلاء وغير عقلاء، ارتفعت الجمادات والعجماوات إلى رتبة العقلاء لحمد ربها، فجمعت معهم وإن كان الجمع مما ألحق بجمع العقلاء هذا فضلا عن تغليب العقلاء الذي تقتضيه اللغة.

وقال ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ولم يقل رب يوم الدين، لأنه «..لو قيل رب يوم الدين لكان فيه مطمع للمفسدين يجدون من شأن الرب رحمةً وصفحًا»[87] «لذلك اختير هنا وصف ملك أو مالك مضافًا إلى يوم الدين. فأما ملك فهو مؤذن بإقامة العدل وعدم الهوادة فيه؛ لأن

---

(79) مدارج السالكين: 1/ 25.

(80) أدب الكاتب: ابن قتيبة: 31.

(81) رواه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنه على الممدوح، رقم الحديث: 5328.

(82) الفروق اللغوية للعسكري،، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، 1998م. 50، 51.

(83) بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعى، ابن القيم، تحقيق هشـام عبد العزيز عطا وآخرَين ط1، مكتبة نزار مصـطفى الباز، مكة المكرمة 1416/ 1996م. 1/ 27.

(84) رواه البخاري، باب ثناء الناس على الميت. انظر الجامع الصحيح بتحقيق: مصطفي ديب البغا، بيروت دار ابن كثير، 1407 هـ/1987م، 1/ 460.

(85) حاشية الكشاف: 1/ 21.

(86) حاشية الكشاف: 1/ 20، 21. التحرير والتنوير: 1/ 168، 169.

(87) التحرير والتنوير: 1/ 170، 171.

شأن الملك أن يدبر صلاح الرعية ويذب عنهم، ولذلك أقام الناس الملوك عليهم»[88] فكأنه لما اتصف سبحانه بالرحمة انبسط العبد وغلب عليه الرجاء، فنبهه بصفة الملك أو المالك ليكون من عمله على وجل، وليجمع في قلبه الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء.

ولما كان قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تدل في ظاهرها على بداية الخلق وتكوينه وتربيته؛ فإن ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ تدل على نهاية الخلق والفصل بينهم وجزائهم؛ فهي تبين مكان ملكه للدنيا والآخرة ملكا لا ينتهي بمكان ولا ينقضي في زمان، وبين البدء والختام جاءت صفة الرحمة تدل على أنه رحيم بخلقه بدءا وختاما.

وخصَّ يوم الدين بالذكر مع أنه سبحانه مالك للأيام سمى يوم القيامة بيوم الدين دون غيره من أسماء يوم القيامة كيوم الآزفة ويوم التلاقي ويوم التنادي لأن «الأملاك كلها يومئذ زائلة فلا ملك ولا أمر إلا له قال تعالى: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾، وقيل: لأنه لما قال ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يريد به ملك الدنيا، قال بعده ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾يريد به ملك الآخرة، ليجمع بين ملك الدنيا والآخرة»[89] بل يريد بـ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ملك الدنيا والآخرة، لكن لما كان للناس ملك في الدنيا مجازى على سبيل الاستخلاف لصاحب الملك الحقيقي، ذكر تفرده بملك يوم الدين «وإيثار لفظ الدين (أي الجزاء) للإشعار بأنه معاملة العَامل بما يعادِل أَعماله المَجْزِيَّ عليها في الخير والشر، وذلك العدلُ الخاص قال تعالى: ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ** ﴾[غافر: 17] فلذلك لم يقلْ ملك يوم الحساب؛ فوَصفُه بأنه ملكُ يَومِ العدل الصِّرف وصفٌ له بأشرف معنى المُلك؛ فإن الملوك تتخلد محَامدهم بمقدار تفاضلهم في إقامة العدل»[90] وبذلك يتناسب ذكر يوم الدين مع وصف الملوكية الذي يقتضي الفصل بين الناس وإقامة العدل وإنصاف المظلوم وقهر الظالم.

وعدل النظم الكريم عن أعبد إلى نعبد وأستعين إلى نستعين لأن النون هنا ليست للتعظيم؛ فاللائق بالإنسان أن يذكر نفسه بالعجز والذلة، لا بالعظمة والرفعة، بل هي نون الجمع، ولما كانت الفاتحة هي سورة الصلاة كان فيه تنبيه للإنسان أن يصلي في جماعة، فإن كان يصلي في الجماعة قال ﴿ نَعْبُدُ﴾، وإن كان يصلي وحده قصد نفسه وجميع المؤمنين، ويكون بذلك قد تشفع إلى الله في إخوانه المؤمنين،:كأنه (ﷺ) قال للعبد لما أثنيت علينا بقولك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّين﴾، وفوضت إلينا جميع محامد الدنيا والآخرة؛ فقد عظم قدرك عندنا وتمكنت منزلتك في حضرتنا، فلا تقتصر على إصلاح مهماتك وحدك، ولكن أصلح حوائج جميع المسلمين، فقل إياك نعبد وإياك نستعين»[91] وفيه من الأسرار أيضا أن في «العدول عن ضمير الواحد إلى الإتيان بضمير المتكلم المشارك الدلالة على أن هذه المحامد صادرة من جماعات. ففيه إغاظة للمشركين إذ يعلمون أن المسلمين صاروا في عزة ومنعة، ولأنه أبلغ في الثناء من (أعبد وأستعين) لئلا تخلو المناجاة عن ثناء أيضا بأن المحمود المعبود المستعان قد شهد له الجماعات وعرفوا فضله»[92] «والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار من الداعي عن نفسه، وعن جنسه من العباد، وقيل إن المقام لما كان عظيماً لم يستقلّ به الواحد؛ استقصاراً لنفسه، واستصغاراً لها، فالمجيء بالنون لقصد التواضع، لا لتعظيم النفس»[93] ويمكن القول بأن النون لفظ مشترك تعنى العظمة كما في قوله: (نحيى ونميت) والتواضع في قوله "نعبد" وإذا نظرنا

(88) التحرير والتنوير: 1/ 171.
(89) الأزهار الفائحة في شرح الفاتحة: جلال الدين السيوطي، تحقيق د/ عبد الحكيم الأنيس: 29 الطبعة الأولى مكتبة الشروق الدولية.؛ 1430ه/-2009م.
(90) التحرير والتنوير: 177/1.
(91) مفاتيح الغيب: 1/ 27.
(92) التحرير والتنوير: 1/ 185.
(93) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام محمد بن علي الشوكاني، ضبطه: أحمد عبد السلام، ط، الشركة المصرية العربية المحدودة للطباعة والنشر والتوزيع، 1/ 20

إلى الجهة وهي تقصير العبد في جانب ربه قلت: إن العبد يقدم بين يدي ربه صفقة جمعت بين عبادته وبين عبادة أولياء الله الصالحين وملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين؛ كأنه يقول: رب إن لم أستحق الإجابة فإني أتشفع إليك بعبادة سائر المتعبدين، فلاتردني والله أكرم من أن يقبل البعض ويرد البعض في هذا المقام، فهم القوم لايشقى بهم جليسهم.

وعبر النظم الكريم بالعبادة دون غيرها لأنها أعم وأشمل وهي أقصي غايات الخضوع والتذلل مع الحب والإجلال لذا كان:التعبير بالعبادة أولى من نصلي أو نوحد إلخ لأن العبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل، ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى»[94] وعبر بالاستعانة دون غيرها مما يشاركها في بعض معانيها لأن«الاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به؛ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه، مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به»[95] لذا كان كلا الفعلين واقع موقعة ولا يمكن لغيره أن يسد مسده.

واستعمل النظم الكريم (اهدنا) ولم يقل أرشدنا؛ لأن الفعل هدى يدل على عدة معان منها «الرشاد والدلالة بلطف، و﴿**فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾، تهكم، والتقدم: ومنه هوادي الخيل، لتقدمها، التبيين: نحو ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ**﴾ والإلهام: نحو ﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾ أي ألهمه لمصالحه، والدعاء: ومنه﴿ **وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾»[96] . وإذا كان من معاني الهداية الدلالة بتلطف يمكن القول بأنها:خصت بالدلالة لما فيه خير المدلول، لأن التلطف يناسب من أريد به الخير»[97]. فمعنى اهدنا: أرشدنا بخير ما ترشد به عبادك الصالحين، وبين لنا، وألهمنا، واجعل لنا دعاة صدق يبصروننا الطريق، واجعلنا للمتقين إمامًا.

وأسند الفعل إلى (نا) الفاعلين فقال: (اهدنا) ولم يقل اهدني لأمور منها أن الدعاء كلما كان أعم كان أقرب إلى الإجابة، فالداعي يدعو للمسلمين جميعًا أو للعالمين، الذين تغذوا وتربوا على موائد كرم الربوبية، ولابد أن يكون فيهم من هو أهل للإجابة، وإذا استجاب الله للبعض؛ فهو أكرم من أن يرده في الباقي، وإسناد الفعل إلى (نا) المفعولين يتساوق مع الحمد في أول السورة، فالعبد قال: الحمد لله، ولم يقل: أحمد الله؛ ذكر جميع حمد الحامدين، وكما ذكر حمدهم في بداية السورة أشركهم معه وقت الدعاء. ولما ذكر العبادة ذكر عبادة الجميع، ولما ذكر الاستعانة ذكر استعانة الجميع، ولما طلب الهداية طلبها للجميع، ولما طلب الاقتداء بالصالحين طلب الاقتداء بالجميع. والإتيان بضمير الجمع ... أحسن وأفخم فإن المقام مقام عبودية وافتقار؛ فأتى فيه بصيغة ضمير الجمع، أي نحن معاشر عبيدك مقرون لك بالعبودية، وهذا كما يقول العبد للملك المعظم شأنه: نحن عبيدك ومماليكك، وتحت طاعتك ولا نخالف أمرك؛ فيكون هذا أحسن وأعظم موقعا عند الملك من أن يقول: أنا عبدك ومملوكك، ولهذا لو قال: أنا وحدي مملوكك استدعى مقته، فإذا قال أنا ومن في البلد مماليكك وعبيدك وجند لك كان أعظم وأفخم، لأن ذلك يتضمن أن عبيدك كثيرون وأنا واحد منهم...، فقد تضمن ذلك من الثناء على الرب بسعة مجده وكثرة عبيده، وكثرة سائليه الهداية ما لا يتضمنه لفظ الإفراد»[98] كما أنه يحمل المسلم هم هداية غيره ويجعله منشغلا بتعبيد الناس لربهم ومنحه الثواب بقدر هذا الانشغال فكلما كثر عدد الذين

---

(94) الكشاف: 1/ 56.
(95) بدائع التفسير، الجامع لما فسره الإمام بن قيم الجوزية، يسري السيد احمد، صالح أحمد الشامي،1/ 43، 44، ط1، دار بن الجوزي 1427هـ
(96) الأزهار الفائحة في شرح الفاتحة: جلال الدين السيوطي، تحقيق د/ عبد الحكيم الأنيس: 33، 34، الطبعة الأولى مكتبة الشروق الدولية.
(97) أبو السعود: 1/ 28، التحرير والتنوير: 1/ 187 التونسية.
(98) الضوء المنير على التفسير، (تفسير مجموع من كتب الإمام المحدث المفسر شمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابي بكر الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية: جمعه: علي الحمد المحمد الصالحي: 1/ 140، ط، مؤسسة النور للطباعة والتجليد بالتعاون مع دار السلام (د، ت)

يستحضرهم في دعائه كان له من الهداية بمثلهم ثم يجعله نائبا عن عباده في طلب الهداية لهم ومتحدثا بلسانهم فأى شرف بعد هذا الشرف.

التعبير بالصراط دون السبيل أو الطريق:

وآثر النظم الكريم التعبير بالصراط دون الطريق أو غيره لأنه مشتق من سرطت الشيء أسرطه إذا بلعته بلعًا سهلًا، فسمي الطريق سراطا لأنه يسترط المارة فيه. والصراط ما جمع خمسة أوصاف: أن يكون طريقًا مستقيمًا، سهلًا، مسلوكًا، واسعًا، موصلًا إلى المقصود، فلا تسمي العرب الطريق المعوج أو المسدود أو الصعب صراطا[99]. وسمي الصراط، لأنه مشتمل على سالكه اشتمال الحلق على الشيء المسروط فيه، وقد جاء على وزن فِعال، وهذا الوزن كثير في المشتملات على الأشياء، كاللِحاف والخِمار والرِّداء، وكذلك الشِّكال والعِنان[100] فمعنى هذا: اهدنا يا ربنا صراطا مستقيما سهلا مسلوكا، واسعا، موصلا إلى المقصود من أقصر طريق دون عنت. والخط المستقيم هو أقصر مسافة بن نقطتين، يرى آخره كما يرى أوله، يصلح فيه التنافس والمسارعة والتجاوز ويأمن السائر فيه من المفاجآت والعقبات لكن المنحنى والمتعرج قد خلا من كل هذه الميزات، ولاحتواء الصراط على هذه المزايا لم يأتِ في القرآن إلا مفردا، لأنه يسع الجميع بلا مشقة ويتعين دون غيره طريقًا للحق.

<u>واستخدم النظم القرآني الفعل (أنعم) دون غيره كـ (أحسن إليه) أو (أجمل في أمره)</u> لأن الإجمال هو الإحسان الظاهر، والنعمة تكون ظاهرة وباطنة، والإحسان قد يكون بما فيه شدة أو كلفة، فالأب يحسن لولده بِسَقْيِهِ الدَّواءَ المرَّ. وأنعم عليه فيه معنى علو النعمة، لذلك يقال هو غريق في النعمة، ولا يقال غريق في الإحسان أو الإجمال، وكل من جاء بفعل حسن، فقد أحسن، لذا كان من أقام الحد محسنًا وإن أنزل بالمحدود شرًا[101] ولما كان المنعم عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون استعمل البيان القرآني (أنعم) الذي يقتضي تعدي الخير إلى الغير، ويتضمن الشكر، ويتضمن عُلُوَّ الْمُنْعِمِ على الْمُنْعَمِ عَلَيْه من خلال تعدي النعمة إلى المنعم عليهم بعلى حرف الجر الذي يفيد الاستعلاء.

استعمال اسم المفعول واسم الفاعل:

استعمل النظم القرآني اسم المفعول ثم اسم الفاعل فقال ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ «لأن أهل الغضب من غضب الله عليهم وأصابهم غضبه، فهم مغضوب عليهم، وأما أهل الضلال فهم الذين ضلوا وآثروا الضلال واكتسبوه، ولهذا استحقوا العقوبة عليه، ولا يليق (ولا المُضَلَّلِين) مبنيا للمفعول، لما فيه من رائحة إقامة عذرهم وأنهم لم يكتسبوا الضلال من أنفسهم بل فُعَل فيهم»[102] فلو استعمل المضلَّلِين على صيغة اسم المفعول لاشتم فيه شيء من الجبرية وعدم القصد فيما اجترحوا من الضلالة، لكن القوم قد ضلوا باختيارهم لذا وصفهم الله بالضالين على صيغة اسم الفاعل واستخذم النظم الكريم المغضوب بصيغة اسم المفعول لأن أولياء الله من أنبيائه المرسلين وملائكته المقربين وعباده الصاحين يغضبون لغضب الله سبحانه. بل تغضب الكائنات لغضب الله ﴿**لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ** مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: 88-91] فكان رد فعل السماوات والأرض والجبال وغضبهن عظيما لما زعم الإنسان أن لله ولدا وشريكا -تعالى الله رب العالمين-

---

(99) مدارج السالكين: 1/ 10، ط، الفقي

(100) نتائج الفكر: السهيلي: 236. وانظر: بدائع التفسير: 1/ 68.

(101) الفروق اللغوية للعسكري: 193، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، 1998م.

(102) بدائع التفسير: 1/ 83.

الخاتمة:

تمثل الانزياح في سورة الفاتحة على المستوى الإيقاعي في كثرة استخدام حروف المد التي تتناسب مع جو التضرع والدعاء والتأوه والتشكي وبسط الرجاء بين يدي رب العالمين، وفي استخدام حرفي الميم والنون في فواصل السورة بما لهما من تأثير يوحي بالاستكانة والخضوع وجمعية القلب على الله تبارك اسمه. وفي تكرار بعض الأسماء الحسنى بلفظها أو بما يشاركها في جذرها، مما يصبغ الجو الروحي للسورة بالجمال المتمثل في اسم الله الرحمن واسمه الرحيم. وفي تكرار ضمير النصب المنفصل إياك الذي يزيد من لذة حضور القلب في ساح الألوهية، وكلمة الصراط التي يوحي تكرارها بالاعتراف بنعمة هداية الله للأولين والآخرين، والإلحاح على الله في طلب الهداية، وتملق الذات العلية. وغير ذلك مما تضمنه مبحث الانزياح الإيقاعي.

وعلى المستوى التركيبي تمثل الانزياح في التعريف الذي أفاد ما لا يفيده التنكير، في الحمد والصراط، وقد ذكرت أثر ذلك على المعنى في موضعه، وفي حذف متعلق الجار والمجرور في البسملة، وحذف الجار والمجرور الذي يمكن أن يتعدى به الفعل نستعين والفعل اهدنا في بعض استعمالاته، وقد ذكرت بعض السر في ذلك. وفي استعمال الاسم الموصول وصلته لفائدة تعظيم المنعم عليهم بمنة الله وإضافة النعمة له وحدة سبحانه. وفي تقديم بعض الأسماء الحسني على بعض، وفي تقديم ضمير النصب المنفصل، وتقديم العبادة على الاستعانة والمغضوب عليهم على الضالين. والالتفات من الغيبة إلى الخطاب، وإسناد فعل الإنعام إلى الضمير العائد على اسم الجلالة والعدول عن ذكر فاعل الغضب، واستعمال النظم الكريم (غير ولا) النافيتين كلتيهما في موضعها اللائق بها. وغير ذلك مما تضمنه المبحث.

أما الانزياح المعجمي والصرفي فقد تمثلا في استعمال لفظ الحمد دون غيره مما يشاركه في بعض معناه، والعدول إلى اسم الله الملك أو المالك، والتعبير عن يوم القيامة بيوم الدين، واستعمال (نا) المفعولين و(نون الجمع) في اهدنا ونعبد ونستعين، والتعبير بالعبادة والاستعانة دون غيرهما، مما يردفهما، واستعمال فعل الهداية دون غيره كأرشدنا أو ألهمنا. واستعمال فعل الإنعام دون غيره، واستعمال اسم المفعول واسم الفاعل.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

كتبه د. بدوي محمد الصاوي محمد

أهم المصادر والمراجع

1. أدب الكاتب، أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكوفي المروزي الدينوري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ط4، المكتبة التجارية، مصر، 1963م.
2. إرشاد العقل أبو السعود
3. الأزهار الفائحة في شرح الفاتحة: جلال الدين السيوطي، تحقيق د/ عبد الحكيم الأنيس، الطبعة الأولى مكتبة الشروق الدولية.؛ 1430ه/-2009م.
4. استخدامات الحروف العربية (معجميا، صوتيا، صرفيا، نحويا، كتابيا)، سليمان فياض، دار المريخ، السعودية، 1418 هـ/1998م.

5. أسرار البلاغة: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، قرأه و علق عليه، أبو فهر محمود محمد شاكر، ط1، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، 1412 هـ/1991م.
6. الأسلوبية والأسلوب: عبد السلام المسدي، دار الكتب الجديدة، ط5، لبنان، 2006م.
7. الأسلوبية، الرؤية والتطبيق: يوسف أبو العدوس، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2007م
8. إشارات الإعجازفي مظان الإيجاز بديع الزمان سعيد النورسي، تحقيق: إحسان قاسم الصالحي، تقديم محسن عبد الحميد، جامعة بغداد (د.ط.ت)
9. الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس،ط1، نهضة مصر، القاهرة، (د.ط)
10. الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي، بيروت، المكتبة العصرية، 2002م.
11. إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: سيد أحمد صقر القاهرة، دار المعارف 1954م.
12. الانزياح في الخطاب النقدي والبلاغي، د. عباس رشيد الددة، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد العراق، 2009م.
13. الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية، أحمد محمد ويس، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، بيروت لبنان،1426 هـ/2005م.
14. بدائع التفسير، الجامع لما فسره الإمام بن قيم الجوزية، يسري السيد احمد، صالح أحمد الشامي، ط1، دار بن الجوزي 1427هـ
15. بدائع الفوائد، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعى، ابن القيم، تحقيق هشام عبد العزيز عطا وآخَرين ط1، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة 1416/ 1996م.
16. البديع في شعر شوقي: د/ منير سلطان: ط 2 منشأة المعارف، الإسكندرية 1992م
17. البلاغة العربية، قراءة أخرى: د/ محمد عبد المطلب، الطبعة الثالثة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، القاهرة، 2009م.
18. البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: تحقيق وشرح: عبد السلام هارون: الطبعة السابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1418هـ -1998م.
19. التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت،لبنان الطبعةالأولى، 1420هـ/2000م
20. التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1997م
21. التعبير الموسيقي: د/ فؤاد زكريا، ط2، مكتبة مصر 1980م.
22. تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمربن محمد الشيرازي البيضاوي، تقديم، محمود عبد القادر الأرناؤوط: 1/ 11، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى 2001م.
23. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار):محمد رشيد بن علي رضا: 39، 40. ط الهيئة المصرية العامة للكتاب1990 م ش.
24. التفسير القيم، جمعه محمد أويس الندوي، تحقيق محمد حامد الفقي،ط دار الكتب العلمية. (د، ت)

25. جامع البيان في تأويل القرآن: ابن جرير، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، تحقيق أحمد شاكر ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان 1420 هـ/2000م.
26. الجامع الصحيح البخاري، بتحقيق: مصطفي ديب البغا، بيروت دار ابن كثير، 1407 هـ/1987م
27. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي: 147،ط، دار صادر بيروت (د،ت)
28. حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ضبط وتشكيل وتصحيح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، ط، دار الفكر، بيروت لبنان.
29. حرص الألفاظ في البحث البلاغي والنقدي، ماهر مهدي هلال، بغداد، دار الرشيد للنشر، 1980م.
30. خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998.
31. دلائل الإعجاز: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني تحقيق: أبو فهر محمود محمد شاكر، ط3، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، 1413هـ - 1993م.
32. صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان،(دت)
33. الضوء المنير على التفسير، (تفسير مجموع من كتب الإمام المحدث المفسر شمس الدين أبي عبد الله محمد بن ابي بكر الزرعي الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية: جمعه: علي الحمد المحمد الصالحي، ط، مؤسسة النور للطباعة والتجليد بالتعاون مع دار السلام (د، ت)
34. علم الأصوات: كمال بشر، ط دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م.
35. علم البديع دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة وسائل البديع د/ بسيوني عبد الفتاح فيود، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ط2/ 1429 هـ/2008م.
36. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام محمد بن علي الشوكاني، ضبطه: أحمد عبد السلام، ط، الشركة المصرية العربية المحدودة للطباعة والنشر والتوزيع.
37. الفروق اللغوية للعسكري،، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، 1998م.
38. الفن والأدب بحث في الجماليات والأنواع الأدبية، ميشال عاصي، بيروت دار الأندلس (د.ت).
39. كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، طبعة الهيئة العامة للكتاب سنة 1988م.
40. الكشاف،عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، أبو الفاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق عبد الرازق المهدي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت)
41. لسان العرب، ابن منظور، محمد بم مكرم بن منظور الأفريقي، ط3، دار صادر، بيروت، لبنان، 1414 هـ/1994.
42. لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د. فاضل صالح السامرائي. ط3،دار عمار بيروت .1423هـ/2003م.
43. المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر: ابن الأثير، ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، المكتبة العصرية بيروت لبنان، 1995م.
44. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت 1393 هـ/1973م.

45. مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1421هـ/2000م.
46. مفتاح العلوم، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، تحقيق عبد الحميد هنداوي، 1420 هـ/2000م.
47. مقاييس اللغة (معجم مقاييس اللغة): أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط، دار الفكر للطباعة والنشر، 1399 هـ/1979م. طبعة خاصة بالمجمع العلمي العربي الإسلامي.
48. مناهج تجديد في النحو البلاغة والتفسير والأدب.، أمين الخولي: ط1، دار المعرفة.
49. نتائج الفكر في النحو، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي، تحيق: الشيخ: علي أحمد عبد الموجود، والشيخ: علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ط1، 1412 هـ/1992م.
50. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، طبعة دار الثقافة، لبنان.